دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الفقيه عيشي الهكاري ت. 585 هـ / 1189 م.: حياته ودوره في عهدي اسد الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبي
المصدر:	إربد للبحوث والدراسات الإنسانية
الناشر:	جامعة إربد الأهلية - عمادة البحث العلمي
المؤلف الرئيسي:	عبدالرحيم، رائد
المجلد/العدد:	مج21, ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2019
الشهر:	تموز
الصفحات:	1 - 36
رقم MD:	993462
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	شيركوه، أسد الدين (ت 1169م) ، الايوبي، صلاح الدين (ت 1193م) ، الهكاري، عيسي (ت 585 هـ) ، التاريخ الإسلامى، تراجم العلماء
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/993462

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفقيه عيسى الهكاريّ ت585هـ/1189م حياته ودوره في عهدي أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي

تاريخ الارسال 2018/5/15 تاريخ القبول 2018/12/2

د. رائد عبد الرحيم(*)

ملـخّص

كان للعلماء دور مهم في عهد الدولتين الزنكية والصلاحية، فقد قرّبهم أربابها، واستمالوهم، واعتمدوا على ذوي الولاء والتميّز منهم في أمور شتى، فأضحى لهم مكانة رفيعة في الدولة، ومن هؤلاء العلماء الفقيه عيسى الهكاري المتوفى سنة 585هـ/1189م، الذي كان له دور مهم في فترة حكم أسد الدين شيركوه ت سنة564هـ/ 1168م، وصلاح الدين الأيوبي ت589هـ/1193؛ إذ نال ثقة الحاكمين، وتنقل في الوظائف والإمارة، واعتمدوا عليه في مهمات مختلفة جليلة: سياسية وعسكرية ودينية، وعلى الرغم من أهمية هذا الفقيه، وأدواره الحساسة التي أداها في الدولتين إلا أن باحثاً لم يفرد له دراسة علمية شاملة مستقلة، ومن هنا يأتي هذا البحث ليقف على: (حياته من جوانبها المختلفة، ودوره في عهد الأمير أسد الدين شيركوه، ودوره في فترة حكم صلاح الدين الأيوبي، وبيان مكانته في هاتين الدولتين)، واعتمد البحث على المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، فجمع المعلومات من المصادر التاريخية العربية المختلفة، ووصفها، وحلّلها، ورتّبها في عناوين ملائمة لها.

(*) قسم اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، مدير معهد تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها فيها.

Faqih Issa al-Hakari 585 AH / 1189 AD
His life and role in the reigns of Asad al-Din Shirkoh andSalah al-Din al-Ayyubi

Scientists had an important role in the era of the two Zangian states and their authority. So the rulers make them very close and relied on the loyal and excellent group of them in various matters, therefore they got a high status in the state. Among these scientists were the jurist Issa al-Hakari, who died in 585 AH / 1189 AD. In the reign of Asad al-Din Shirkuh in 564 AH / 1168 AD, and Salah al-Din al-Ayyubi, 589 AH / 1193, he obtained the confidence of the rulers, held several positions in different emirates, as a result of this, they depend on him in various and important tasks: political, military and religious, despite the importance of this jurist and his sensitive roles that he had In the two countries, No researcher specify an Independents cientific comprehensive study, hence this research comes to on:

1- His life from its various aspects.
2- His role in the era of Prince Assad al-Din Shirkuh.
3 - His role during the reign of Salah al-Din al-Ayyubi
4- His status in these two countries.

Moreover, the research followed an inductive analytical and descriptive method, as the collection of scientific material from various sources, and described and analyzed to chime and addresses of the study and its objectives.

اسمه ونسبه ومولده

لم تقف أكثر المصادر على سلسلة نسب عيسى الهكاري، بل ذكرته أغلبها مقتضباً فقالوا: "عيسى بن محمد بن عيسى أبو محمد الهكاري ضياء الدين"[1]. ولعل الوحيد الذي بدأ بذكر سلسلة نسبه كاملة هو ابن خلكان؛ إذ أملاها عليه، كما قال، ولد ولد أخي الهكاري؛ ثم أخذ عنه الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات، وهي: "الفقيه أبو مح مد عيسى بن محمد ابن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف بن القاسم ابن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه"، "ويقال له الهكاري، الملقب ضياء الدين"[2]. فواضح ممّا ذكره ابن خلكان أن سلسلة النسب اختلط فيها النسب العربي الهاشمي القرشيّ بالكردي الهكاري، على حسب رواية أحد أقرباء الفقيه نفسه، وكأن ابن خلكان" يقول ضمنا: لست مسؤولاً عن صحتها أو عدم صحتها"[3].

فهل قصدوا بذلك أن يعرّبوه، ويجعلوه عربيّاً؟ هذا ما لم توضحه المصادر العربية الأخرى التي تناولت الفقيه، واكتفت بذكر نسبه الهكاريّ، ما يعني البلد التركي الذي يقع في شرق تركيا الآن، وسكانه من الكرد. واللافت في الأمر أن هذه المصادر

---

(1) انظر المنذري، التكملة لوفيات النقلة، 123/1، أبا شامة، عيون الروضتين، 280، الروضتين في أخبار الدولتين، 110/4، الذهبي، تاريخ الإسلام،805/12، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 255/7، ابن كثير، البداية والنهاية، 611/16، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/6 ، تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1ق130/1.

(2) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 497/3، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23.

(3) أحمد الخليل، الفقيه عيسى الهكاري مهندس الدولة الأيوبية، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية.

صمتت عن الحديث عن نشأته، وبلده الأول الذي عاش فيه، ما يجعل الأمر صعباً على الباحث أن يؤكد ما ذكره ابن خلّكان أو ينفيه، ولكن لا بد من طرح بعض الأسئلة هنا :

1- هل نسبته إلى آل البيت والعرب هي جزء ممّا درج عليه المؤرخون العرب من جعل الشخصيات المشهورة تعود إلى أصول عربية؟ وهو ما تجلّى حتى في نسب صلاح الدين واختلاف هذا النسب؛ إذ جعل بعضهم أصوله عربية.

2- هل يمكن أن يكون الرجل من أصول عربية من جهة الأب، وكردياً هكاريّا من جهة الأم؟ ربّما

ويرجح أحمد الخليل أن نسبه إلى الهاشميين لا أساس له من الصحة، ورجّح نسبه إلى الهكارية، وهو الرأي الأقرب إلى الصواب، ويقدّم الباحث أدلة على ما يقوله، تتلخص في أن الهكاري نفسه لم يذكر لأحد نسبه إلى آل بيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وذكر نسبه الهكاري، وكان في خضم الصراع يقف إلى جانب الهكاريين الأكراد[1]. ويمكن إضافة أدلة أخرى، وهي :

1- أنه لم يشتهر بلقب يشير إلى علاقته بالهاشميين القرشيين، في حين اشتهر بألقاب تدل على أصله الهكاري الكردي.

2- أن الفقيه عيسى الهكاري لم يكن وحده في جيش صلاح الدين، بل كان له أقرباء وأخوة فيه، وكانت فرقة الهكارية الكردية فرقة كبيرة في الجيش

(1) أحمد الخليل، الفقيه عيسى الهكاري مهندس الدولة الأيوبية، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية.

الصلاحي، وشاركته في أغلب حروبه، وذكرتها المصادر، وذكرت أسماء عدد من أولئك القادة[1]. ما يدل على أن الفقيه عيسى كان أحد الهكاريين الذين ساندوا الأيوبيين في حكمهم، وانضموا إليهم لاشتراكهم معهم في العرق الكردي.

ومن هنا يمكن القول هو هكاري كردي، راجع إلى موطنه الأصلي وهو جبال الهكارية، الواقعة شرق تركيا، وتقع شرق إيران، وجنوب العراق، وهي جبال وعرة وشامخة، وديانها ضيقة[2].

ويضيف المنذري إلى اسمه لفظة" الموصليّ"[3]، ولا يفيد مصدر أن الهكاري سكن الموصل لينسب إليها، وكل ما ذكروه أنه تلقى العلم في جزيرة ابن عمر، وهي " بلد فوق الموصل"[4]، وهي اليوم "بلدة وقضاء في محافظة شرناق في منطقة جنوب شرق الأناضول في تركيا، الواقعة قرب حدود العراق وسوريا"[5]، وربما جاء لقب الموصلي لقرب جبال الهكارية، موطن الفقيه عيسى، من مدينة الموصل العراقية.

---

(1) انظر بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص77، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 73/16، أبا شامة الروضتين، 90/4، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 371/21، الدواداري، كنز الدرر، 100/7، الصفدي، الوافي بالوفيات، 171/23، ومن هؤلاء القادة والرجال الأمير شرف الدين الهكاري، والأمير خليل الهكاري، والظهير الهكاري، ومجد الدين وهما إخوة الفقيه عيسى الهكاري.

(2) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة "هكارية".

(3) المنذري، التكملة، 123/1.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة" جزيرة ابن عمر".

(5) ويكيبيديا، جزيرة ابن عمر.

وأطلقوا عليه لقب الفقيه الشافعي[1]، وذلك لأنه درس الفقه على المذهب الشافعي، وصار أحد أقطابه ما جعل أصحاب كتب طبقات الشافعية يضعونه في إحداها، وترجموا له هناك، وأضاف إليه السبكي لقب المحقق، فقال: الفقيه المحقق، دلالة على ضلوعه في الفقه الشافعي[2]

ولقبوه بالأمير[3]، وهي ميزة منحه إياها أسد الدين شيركوه، ثم صلاح الدين عندما اتّصل بهما، وأظهر حسن السيرة والولاء لهما[4].

أمّا لقبه ضياء الدين، فلم يشر أحد إلى السبب الذي كان وراء إطلاق هذا اللقب عليه، أو متى أطلق عليه، وربما يعود إلى مكانته في الفقه، وتضلّعه فيه، أو لدوره في عهدي أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي، وما أسداه من خدمات للإسلام والمسلمين خلال حياته.

مولده ووفاته ودفنه

لم تشر المصادر التاريخية العربية إلى تاريخ ميلاد عيسى الهكاري[5]، بل تحدثوا عن وفاته، فذكر ابن شداد أنه في أخريات حياته " مرض مرضاً، ظلّ يتعاهده،

---

(1) انظر المنذري، التكملة لوفيات النقلة، 123/1، ابن العديم، زبدة الحلب، 509/2، أبا شامة، عيون الروضتين، 280،الروضتين، 110/4، الذهبي، تاريخ الإسلام،805/12،السبكي،طبقات الشافعية الكبرى، 255/7،ابن كثير، البداية والنهاية، 611/16،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/6.

(2) انظر السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.

(3) انظر أبا شامة، عيون الروضتين،280، الروضتين، 110/4 ، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7، ابن كثير، البداية والنهاية، 611/16.

(4) سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات القادمة.

(5) انظر احمد الخليل، الفقيه عيسى الهكاري مهندس الدولة الأيوبية، مقال على الشبكة العنكبوتية.

وهو ضعيف النفس، وعرض له إسهال أضعفه، فلم تقطع صلابته، ولم تغب ذهنه عنه إلى أن مات"[1]، وأجمع أغلب المؤرخين أنه توفي فجر يوم الثلاثاء، تاسع ذي القعدة من سنة 585هـ/1189م، في منزلة الخّرُّوبَة[2]حيث كان يعسكر جيش صلاح الدين إبان حصاره الصليبيين في عكا في تلك السنة، وقد كان الهكاري مجاهداً معه، ونقل إلى القدس، فدفن فيها[3]، بعد أن حزن عليه صلاح الدين " والمسلمون حزناً شديداً"، وصلّوا عليه[4]، وقبره اليوم من القبور المعروفة في مقبرة ماملا في القدس[5].
القدس[5].

ويخرج على هذا الإجماع الدواداري في كتابه كنز الدرر الذي أورد أخباراً عن حال صلاح الدين الأيوبي خلال حصار الصليبيين عكا، سنة 587هـ/1191م، وتشديدهم الحصار عليها، ما دفع المسلمين فيها إلى إرسال رسالة إلى صلاح الدين، يخبرونه برغبتهم في الاستسلام، ليخلصوا من ضغط الحصار، وانعدام الدعم لهم، هنا يثبت الدواداري كلاماً على لسان الهكاري، يصف فيه وضع صلاح الدين النفسي

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، 81.

(2) موقع قرب عكا في فلسطين . انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 498/3، الصفدي، الوافي، 171/23.

(3) انظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 375/21، ابن الأثير، الكامل، 77/16، ابن شداد، النوادر السلطانية، 81، المنذري، التكملة، 23/1، أبا شامة، الروضتين 110/4، عيون الروضتين،298/2، أبا الفداء، المختصر في أخبار البشر، 163/2، الذهبي، تاريخ الإسلام، 806/12، الصفدي الوافي بالوفيات، 498/3، ابن كثير، البداية والنهاية، 611/16، السبكي، طبقات الشافعية، 256/7، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/6، المقريزي، السلوك، ج1ق130/1.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 375/21.

(5) انظر حنا عيسى، المقابر الإسلامية في القدس، مقال منشور على الإنترنت.

فقال: " قال الفقيه الهكاري راوي هذا الحديث: والله لم يستطعم السلطان بطعام ذلك اليوم مع تلك الليلة"[1] ، ويقصد يوم الثلاثاء سابع جمادي الآخرة من السنة المذكورة آنفاً . ما يعني أن الهكاري كان ما يزال على قيد الحياة سنة 587هـ، ولكن المؤرخ الدواداري لم يذكر لاحقاً وفاة الفقيه عيسى، ما يدفع إلى القول : إن ما ذكره على لسان الهكاري ربما يكون لغيره، وقد خلط بينهما، وهو خلط ليس بغريب على الدواداري، الذي سبق وجعل الأمير الصليبي أرناط حاكماً القدس حين ذكر قادة الصليبيين في معركة حطين سنة 583هـ، مع العلم أنه كان صاحب الكرك، وكان جاي لوزنجان حاكم القدس[2].

أسرته

لم تتناول المصادر التاريخية الحديث بتفصيل عن أسرة الفقيه عيسى الهكاري: زوجته وأولاده، ولكنهم أشاروا إلى كنيته بأبي محمد، ما يشير إلى ولده الكبير، وتحدثوا، على ما مرّ آنفاً، عن أقربائه[3]وإخوته الذين كانوا نواة في جيش صلاح الدين الأيوبي، وربما كانوا تحت إمرة الهكاري في بعض الحروب[4]، واستشهدوا في بعض المعارك، ومنهم أخوه الظهير[5]، الذي قتل في معركة عكا سنة 585هـ، ومن

(1) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، 107/7.
(2) انظر المصدر نفسه، 52/7.
(3) انظر ابن شداد، النوادر السلطانية، 77.
(4) سيأتي الحديث عن ذلك في الحديث عن جهاده.
(5) انظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 371/21، ابن الأثير، الكامل، 73/16، ابن شداد، النوادر السلطانية، 77.

إخوته المذكورين مجد الدين أبو حفص عمر الذي ولد " في رجب سنة ستين وخمسمائة ، وتوفي في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثلاثين وستمائة بالقاهرة، ودفن في سفح المقطّم" ، وقد عاصره ابن خلكان، وصلّى عليه، وذكر أنه كان يلبس زي الأمراء والعلماء، ويجمع بين اللباسين[1]. وهناك إشارة في كتاب موسوعة أعلام فلسطين في القرن العشرين أن من نسل الهكاري "العديد من الأمراء الذين استقروا في بقاع عديدة من أرض فلسطين وخاصة القدس. أما أحفاده في القدس في أيامنا، فهم آل الإمام"[2].

علمه وعمله

تحدثت المصادر عن العلوم التي تلقاها في حياته، وفي مقدمتها علم الفقه على المذهب الشافعي؛ إذ أخذه في جزيرة ابن عمر على الإمام الفقيه أبي القاسم بن البَزَري الجزري شيخ الشافعية[3]، فأضحى أحد أعلام الفقه في وقته، فاستحق لقب العالم الفقيه أو الفقيه المحقق[4]. ودرس الهكاري علم الحديث بعد التحاقه بأسد الدين

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 498/3، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، 171/23.

(2) محمد حمادة، موسوعة أعلام فلسطين في القرن العشرين، 150.

(3) أبو القاسم عمر بن محمد بن عكرمة، كان حافظا للفقه الشافعي ، ضالعاً فيه، اشتغل بالتدريس في جزيرة ابن عمر، وتلمذ عليه عدد كبير من الطلاب، وتوفي سنة 560هـ. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة " جزير ابن عمر". وانظر ابن الأثير، الكامل، 77/16، المنذري، التكملة، 123/1، ابن خلكان، 397/3، أبا الفداء، المختصر في أخبار البشر، 163/2، الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12، الصفدي/ الوافي بالوفيات، 170/23، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7، ابن كثير، البداية والنهاية، 611/16.

(4) انظر الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.

شيركوه[1]، وارتحل في طلب العلم، ففي مصر" سمع بها من الزاهد أبي الحسن علي ابن إبراهيم بن المسلم الأنصاري[2]، وسمع بالإسكندرية من الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد الأصبهاني[3]، وبدمشق من الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن الدمشقي[4] [5].

هذه العلوم التي تخصص فيها عيسى الهكاري أهلّته للعمل في غير موضع مدرساً، فيذكر أنه عمل ،عقب انتهائه من دراسة الفقه في جزيرة ابن عمر، ودرّس في المدرسة الزّجاجية[6]بحلب[7]، ولكن ابن خلكان خالف غيره من المؤرخين؛ إذ جعل

---

(1) انظر المنذري، التكملة، 123/1.

(2) ويعرف بابن بنت أبي سعد، احد علماء الحديث في مصر . انظر ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب، 6.

(3) أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سلفة، أبو طاهر الحافظ السِّلَفي الأصفهاني، ولد سنة 475هـ/1082م، تنقل في البلاد لطلب العلم في بغداد ودمشق ومصر والإسكندرية، فأخذه عن شيوخ كثر ، فدرس الحديث، وتمكن فيه، وكان حافظا ومتقنا ودينا صادقاً،، توفي سنة 576هـ/1180م . انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 271/21-272.

(4) هو الحافظ ابن عساكر، ولد سنة 499هـ/1105م ، وتوفي سنة 571هـ/1175م ، تنقل في البلاد لطلب العلم في بغداد وخراسان وأصبهان وغيرها، سمع الحديث ودرس الفقه، وصنّف كتباً كثيرة منها تاريخ دمشق. انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 239/21-240.

(5) المنذري، التكملة، 123/1، وانظر الذهبي، تاريخ الإسلام، 806/12، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.

(6) اختلف فيمن بناها فقيل: بناها الصاحب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب، وقيل: بناها عبد الرحمن بن العجمي للشافعية، وخربت هذه المدرسة منذ وقت مبكر، ويذكر أنه على الغلب كان مكانها في " محل خان الطاف من محلة الجلوم". انظر محمد كرد علي، خطط الشام 103/6.

(7) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 397/3، الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12، الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23.

عمله في هذه المدرسة بداية أمره، أي قبل تلقيه العلم في جزيرة ابن عمر[1]. ثم عمل الهكاري محدثاً في قيسارية في فلسطين[2]، فسمع منه فيها القاضي أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري[3]وغيره[4].

وقد تتابعت المناصب والوظائف التي تولاها الهكاري لاحقا، ولا سيّما بعد التحاقه في ركب أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي، فأضحى إماماً، وجندياً، وأميراً، وأحد قادة الجيش، وأمينا للقدس[5].

صفاته

أسبغت المصادر التاريخية صفات متعددة على الفقيه عيسى الهكاري، وكانت نابعة من شخصيته وواقع حياته الذي عاشه، وركّزوا على صفاته الخُلُقيّة، وعلى الرغم من تعدد الأقوال فإنها تجمع على حسن سيرته وسلوكه، وعلى أخلاقه التي جمعت محاسن القيم، ومن هذه الأقوال:

- يقول ابن الأثير:" وكان جمع العلم والدين والشجاعة"[6]، وفي موضع آخر من كتابه: "وكان فقيهاً، جندياً، شجاعاً، كريماً، ذا عصبية ومروءة"[7].

---

(1) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 397/3 ، الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12، الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23.

(2) انظر الذهبي، تاريخ الإسلام، 806/12، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.

(3) لم اعثر على ترجمته.

(4) انظر المنذري، التكملة، 123/1، الذهبي،تاريخ الإسلام، 806/12، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.

(5) سيأتي تفصيل ذلك تحت عنوان " الهكاري في عهدي أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبيّ".

(6) ابن الأثير، الكامل، 429/9.

(7) المصدر نفسه، 77/16 ..

- ويذكر ابن شداد: " كان رحمه الله كريماً شجاعاً، حسن المقصد"[1].
- ويصفه الذهبي والسبكي بأنه" كان ذا شجاعة وشهامة"[2].
- ويقول عنه ابن كثير:" وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والنبلاء والأمراء الكبار"[3]. الكبار"[3].
- وأضاف ابن تغري بردي إلى صفاته " الورع والعفة الدين"[4].

وقد ظهرت هذه الصفات في سلوكه لاحقاً، فأكثرت المصادر من الحديث عن إخلاصه وتديّنه وشجاعته ومعاونته الناس ولا سيّما ذوي الحاجة منهم[5].

وتجلّت بعض مظاهر تقواه وصبره؛ إذ استشهد أخوه الظهير في معركة عكا سنة 585هـ ، فيذكر ابن شداد، وكان شاهدا الحدث، أن الهكاري بعد استشهاد أخيه كان جالساً " يضحك والناس يعزونه، وهو ينكر عليهم، ويقول: هذا يوم هناء لا يوم عزاء"[6]7.

ومن مظاهر هذه التقوى حرصه على خدمة الناس ورعايتهم، فقد عرف إبان خدمته صلاح الدين بهذه الصفة، فعرف عنه أنه كان لا يكلّ في ذلك، فذكر

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، 81، وانظر أبا الفداء، المختصر في أخبار البشر، 163/2.
(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، 806/12، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، 611/16.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/6.
(5) سيأتي تفصيل ذلك حين الحديث عن علاقته بأسد الدين شيركوه وصلاح الدين.
(6) .
7- .

المؤرخون أنه" وكان واسطة خير للناس، نفع بجاهه خلقاً كثيراً"[1(2)] ، " أقامه الله لقضاء حوائج الناس، والتفريج عن المكروبين"[3(4)]، وذكروا أنه" ربما دخل على الملك الملك الناصر وفي يده الأوراق وفي منديله وفي عمامته وفي يديه"[5(6)].

وتحدثت بعض المصادر عن هيأته، ولا سيّما بعد أن عمل في الجيش في عهدي أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، فذكرت أنه" كان يلبس زي الأجناد، ويعتمّ بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين"[7(8)].

- **الفقيه الهكاري ودوره في عهدي أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبيّ**

لفتت حياة الهكاري في ظل هذين الحاكمين الجليلين أنظار المؤرخين، لما حظي به من منزلة رفيعة، وما أداه من دور عظيم وحساس، فاستحق أن يدونوها بين سطور مؤلفاتهم، وفي الآتي تفصيل هذا الدور:

أولاً: الهكاري في عهد أسد الدين شيركوه

---

(1) .

2- ابن خلكان، وفيات الأعيان، 498/3، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 1110/6.

(3) .

4- ابن الجوزي، مرآة الزمان، 375/21، وانظر ابن شداد، النوادر السلطانية، 81.

(5) .

6- المنذري، التكملة، 123/1، الذهبي، تاريخ الإسلام، 806/12، الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23.

(7) .

8- ابن خلكان، وفيات الأعيان، 498/3، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، 171/23.

تناولت المصادر التاريخية العلاقة التي جمعته بأسد الدين شيركوه المتوفى سنة 564هـ/1169م، بالفقيه عيسى الهكاري، وبيّنت دور الأخير في عهد شيركوه، فذكروا أن اتصال الهكاري به كان قبل توجهه إلى مصر سنة 559هـ/1164م، حين كان قائداً لجيوش نور الدين زنكي، فجعله إمامه في صلواته الخمس مدة من الزمن، ثم أخذه معه إلى مصر حين توجه إليها بأمر من نور الدين زنكي بناء على طلب الخليفة الفاطمي العاضد يومذاك ليخلصها من الصراع الدائر بين الوزيرين شاور وضرغام، اللذين كادا أن يسلماها للصليبين، "فلمّا رآه شهماً أمّره"[1]، و"جعل له إقطاعاً" بعد أن رأى من شجاعته الكثير[2]. ومن هنا حظي الفقيه بلقب الأمير، ونال ثقة قائده، قائده، فانتقل إلى العمل العسكري في الجيش الأسدي، وأضحى ذا مكانة مرموقة فيه[3]، ولذا وصف في المصادر التاريخية " من قدماء الأسدية"[4] ، ومن أعيان دولته[5]. دولته[5].

ويبدو أنّ الهكاري كان يرافق قائده شيركوه في رحلاته بين دمشق ومصر، وظل محل ثقته، ومستودع أسراره، ورسوله في المهمات الصعبة الجليلة، فبعد أن أنهى

---

[1]- المنذري، التكملة، 123/1، وانظر ابن الأثير، الكامل، 77/16، أبا شامة، الروضتين، 110/4، وابن خلكان، وفيات الأعيان، 497/3، الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12، الصفدي، الوافي بالوفيات،170/23، ابن كثير، البداية والنهاية، 611/16 ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/6 .

[2]- ابن الأثير، الكامل، 77/16، وانظر الذهبي، تاريخ الإسلام، 806/12، الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.

[3]- انظر البداية والنهاية، 611/16 .

[4]- ابن الأثير، الكامل، 77/16 .

[5]- انظر ابن الأثير، الكامل، 429/9 ،

شيركوه مهمته في القضاء على ضرغام وتثبيت حكم شاور في وزارته والعاضد في خلافته، رجع إلى الشام، ولكنّ شاور ظل يشعر بالخوف والتوجس من عودة الجيش النوري بقيادة أسد الدين شيركوه، ما جعله يستكتب الصليبيين ليسلمهم مصر، ولينقذوه من القائدين، ولكنّ ابنه الكامل بن شاور لم يكن راضياً عمّا يفعله أبوه، رافضاً سلوكه في الغدر والخيانة، ونكث العهود، فذهب إلى الخليفة العاضد، وطلب إليه أن يكاتب نور الدين ليأتي بجيشه مرة أخرى لإنقاذ مصر، فكاتبه بالخبر، "فلمّا وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه، وأرسل الفقيه الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالة سريّة إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيّنها، وأن يكتم ذلك من شاور"[1]. وهذا يدل على الثقة الكبيرة التي حظي بها الفقيه عيسى عند نور الدين وأسد الدين، حتى أفضوا إليه بالأسرار العسكرية والسياسية، وجعلوه يتدخل في تحديد مصائر الدول .

وكان الهكاري رسول شيركوه في مهمات أخرى بعد عودتهم مرة أخرى إلى مصر، ففي سنة 564هـ/1168م تحديداً، كانت هناك رغبة جامحة بقتل شاور من الخليفة العاضد، وبعض أمراء الجيش الأسدي، ومنهم ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وذلك لتكرار شاور نكث العهود، وإدمانه الخيانة والاستعانة بالصليبيين، حتى أسهم في إهلاك الحرث والنسل، وجعل مصر عرضة للنهب والسلب والاحتلال الصليبي، ولو لوقت من الزمان، ولكن على ما يبدو أن أسد الدين كان قد أعطى عهودا لشاور

[1]- أبو شامة، الروضتين، 105/2.

ألا يقتله وأن يحافظ على حياته، فلمّا رأى القوم يرغبون في قتل شاور، بعث إليه "مع الفقيه عيسى يقول: لك في رقبتي أيْمان، وأنا خائف عليك من الذي عندي، فلا تجئ، فلم يلتفت"[1] .

ثانياً: دور الهكاري في عهد صلاح الدين الأيوبيّ

كان الدور الأبرز للفقيه عيسى الهكاري في فترة حكم صلاح الدين الأيوبي منذ أن كان وزير الخليفة الفاطمي، وتابعاً لنور الدين إلى أن أصبح ملكاً أسس دولة أيوبية قويّة، وقد أسهم الهكاري نفسه في توطيد أواصر العلاقة بينه وبين صلاح الدين الأيوبي منذ اللحظة الأولى من وفاة أسد الدين شيركوه، وطمع كبار الأمراء بعده وتنافسهم في تولي الوزارة خلفاً له، ورفضهم أن يلبوا وصيته بولاية صلاح الدين، ومن هؤلاء الأمراء قطب الدين خَسرو بن تُليل وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري الملقب بالمشطوب، ملك الأكراد[2]، وشهاب الدين محمود، صاحب حارم[3]، وخال صلاح الدين، وعين الدولة الياروقي، رأس الأتراك، ويذكر بعض المؤرخين أن الهكاري اتّفق

[1]- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 153/21.

[2]- ولقّب بملك الأكراد، كان شجاعاً، صاحب مكانة في قبيلته، دخل غير مرة مع أسد الدين شيركوه مصر، وشهد فتحها، وخدم صلاح الدين، وأسر في معركة عكا، تولى نابلس فظلم وعسف في أهلها، توفي سنة 588هـ/1192م. انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 10/22.

[3]- حارم مدينة سورية تقع شمال غرب محافظة إدلب، وهي مشهورة بالزراعة وجمال طبيعتها وبساتينها، وفيها آثار مختلفة ومنها قلعتها المشهورة. انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة حارم ،ويكيبيديا، مادة حارم .

مع بهاء الدين قراقوش[1] على إسناد الوزارة إلى صلاح الدين، وعملا على ترتيب الأمر له، وآزرهم في ذلك الخليفة الفاطمي العاضد، الذي استدعى صلاح الدين، وخلع عليه خلعة الوزراة، ولقبه الملك الناصر[2]، وقد دعا العاضد إلى ذلك كما تروي المصادر "أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يُولّى، فإنّه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه."[3]، ويسرد المؤرخون ما فعله الهكاري ليثبت حكم صلاح الدين ووزارته، فبيّنوا أن الأمراء لم يطيعوا صلاح الدين بعد وزارته، ورفضوا خدمته، وهنا برز دور الهكاري، الذي لجأ إلى الحيلة في استمالتهم، "فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما، ثم قصد الحارميّ، وقال له: هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وعزّه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك، فمال إليه أيضاً، ثم فعل مثل هذا بالباقين،

---

[1]- من أ كابر أهل القصر في عهد صلاح الدين الأيوبي، كان أولاً من رجال الخليفة العاضد ثم أسد الدين شيركوه، وهو الذي بنى القلعة في القاهرة, والسور على مصر، والقنطرة عند الأهرام، توفي سنة 597هـ/1200م . انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 56/22.

[2]- انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 145/12، ابن الأثر، الكامل، 343/9-344،ابن العديم، زبدة الحلب، 501/2، أبا شامة، الروضتين، 69/2-70، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 497/3،الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12-806، الصفدي، الوافق بالوفيات، 170/23، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7، ابن تغري بردي، 110/6.

[3]- ابن الأثير، الكامل، 344/9، وانظر أبا شامة، الروضتين 70/2، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 238/28.

وكلّهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبّت قدم صلاح الدين"[1]

وواضح في هذه الرواية حنكة الفقيه عيسى، الذي اعتمد في سياسته التفريق بين الأمراء بناء على واقع حالهم ونفسياتهم، وصلتهم بصلاح الدين، حتى نجح في الأمر. ويبدو أن الهكاري كان منذ البداية ميالاً إلى أن يرث صلاح الدين مكان عمّه شيركوه، حبّاً فيهما أو تثبيتاً لمكانته، وهو ما يلمسه الباحث في حرصه منذ أن دخل صلاح الدين مصر المرة الأولى على تزويجه بنت شاور، وتزويج أخت صلاح الدين من ابن شاور الكامل[2]. ومن هنا يمكن القول: إن الذي دعا الفقيه عيسى إلى الوقوف إلى جانب صلاح الدين هو :

1- ولاؤه لسيده أسد الدين شيركوه حيّا وميتاً، وهو الذي أوصى قبل مماته بالوزارة لصلاح الدين.

2- قربه من صلاح الدين، ثم إيمانه بشخصيته وشجاعته، هذا فضلاً عن اشتراكهما بالعرق الكردي[3].

وهذا الدور الذي أداه الهكاري جعل صلاح الدين يرعى له هذه الخدمة[1]، ويزيد الثقة فيه، فقرّبه منه، وحفظ له ذلك كله، فأضحى جندياً من جنوده، بل أميراً من

---

[1]- ابن الأثير، الكامل، 344/9، وانظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 154/12، ابن العديم، زبدة الحلب، 501/2، أبا شامة، الروضتين، 71/2.، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 238/28.

[2]- انظر أبا شامة، الروضتينن 102/2.

[3]- انظر احمد الخليل، الفقيه عيسى مهندس الدولة الأيوبية، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية.

أكابر أمرائه، وصار مستشاره، ومحل ثقته، ووسّع عليه في الرزق، وأوكل إليه المهام الجسام في دولته، ونظر له بعين الرعاية حتى وفاته[2]. وهو ما عبر عنه المؤرخون بصور شتى، وهذه بعض أقوالهم في الهكاري وفي علاقته بصلاح الدين:

- يقول ابن الأثير: " وكان كبير القدر عنده، مُطاعاً في الجند"[3] ، وذكر في موضع آخر: وكان" من أعيان عسكره"[4].
- يقول ابن خلكان:" كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية، كبير القدر، وافر الحرمة، معوّلاً عليه في الآراء والمشورات"، ويضيف أن السلطان" اعتمد عليه، ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الإدلال عليه، يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من كلام"[5].
- ويذكر الذهبي أن الهكاري " كان أحد أمراء الدولة الصلاحية، بل وأحدهم وكبيرهم"[6]، وأن مكانته كانت عظيمة عنده[7] .

ويشير السبكي إلى الهكاري، وتدرجه في السلطة في عهد صلاح الدين؛ إذ رفع" منزلته، ونقله من إمرة إلى إمرة ،حتى صار أكبر أمراء الدولة"[1].

---

[1]- انظر الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12-806، الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23، السبكي، طبقات الشافعية، 255/7.

[2]- انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 497/3، ابن كثير، البداية النهاية، 611/16 .

[3]- ابن الأثير، الكامل، 16/10،

[4]- ابن الأثير، الكامل، 77/16 . وانظر أبا الفداء، المختصر، 163/2.

[5]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، 497/3

[6]- الذهبي، تاريخ الإسلام، 805/12، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، 170/23 .

[7]- انظر الذهبي، تارخ الإسلام، 806/12.

وعبر غير مؤرخ عن حب صلاح الدين للفقيه عيسى، فهذا سبط ابن الجوزي يقول: " وكان السلطان يحبّه، ويحسن إليه، ويحسن الظنّ به ويستشيره"[2].

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يوكل إليه صلاح الدين مهمات جليلة في الدولة ومتنوعة، وبعد استقراء المعلومات من المصادر التاريخية يمكن أن تنتظم هذه المهمات وذلك الدور في الآتي:

أولاً: الهكاري رسولاً لصلاح الدين

أسند صلاح الدين إلى الفقيه الهكاري عدداً من المراسلات بينه وبين رجالات عصره وعلمائه، وبعض هذه المراسلات كان في أوقات حساسة، وعصيبة من عمر الدولة الصلاحية، ومنها ما كان في سنة 568هـ، فبعد أن أزال صلاح الدين بأمر من نور الدين زنكي الدولة الفاطمية، تغيرت العلاقة بينهما، فكان كل واحد منهما يخشى الآخر على نفسه، ويضمر له في نفسه الشر، ولعل ذلك راجع إلى استبداد صلاح الدين بملك مصر، وكثرة الأموال التي غنمها من الفاطميين، وعلى الرغم من ذلك ظل صلاح الدين على ولائه لنور الدين حتى وفاته وما بعد وفاته، ولكن هذا الولاء كان على دَخَن، وهو ما يشير إليه القاضي بهاء الدين بن شداد في كتابه النوادر السلطانية؛ إذ تحدث عن وفاة نور الدين سنة 569هـ/1173م ، ونقل حديثه عن صلاح الدين، وممّا رآه بعينيه، وسمعه بأذنيه منه، فقال: "ولقد حكى لي السلطان قال: بلغنا عن نور الدين أنه قصد بالدار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون

[1]-السبكي، طبقات الشافعية، 256/7.

[2]- ابن الجوزي، مرآة الزمان، 375/21، وانظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/6 .

بأن نكاشف ونخالف، ونشق عصاه، ونلقى عساكره بمصاف ترده إذا تحقّق قصده، وكنت وحدي أخالفهم، وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى صل الخبر بوفاته"[1]. ويبدو أن هذا النزاع انعكس على أرض الواقع؛ إذ كان صلاح الدين يخشى أن يجتمع عسكره بعسكر نور الدين في قتال، ويؤكد ذلك أنه في تلك السنة أي سنة 568هـ/1172م أوعز نور الدين إلى صلاح الدين بأن يخرج بجيوشه لمحاصرة الفرنج في الكرك، فخرج، ووصلها قبل نور الدين ، فلّما علم الأخير بذلك، خرج بجيشه ليلتقي جيش صلاح الدين، الذي ما إن سمع بقربه منه حتى خاف وأهله من لقائه، فاتفقوا على الرجوع إلى مصر، كي لا يعطوا فرصة لنور الدين من الاجتماع بصلاح الدين، ومن ثمّ عزله عن حكم مصر، ولمّا وصلوا إليها، أرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري إلى نور الدين يعتذر عن رحيله، ويبيّن له أنه كان عند خروجه من مصر أقام أباه نجم الدين في الحكم، وهو مريض على فراش الموت، ويخاف أن يموت، وهو خارج البلاد، فتخرج" عن أيديهم، وأرسل معه التحف والهدايا...، فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك، فعظم عليه، وعلم المراد من العود، إلا أنّه لم يظهر للرسول تأثراً، بل قال له: حِفْظُ مصر أهم عندنا من غيره"[2].

[1]- ابن شداد، النوادر السلطانية، 30، وانظر ابن الأثير، الكامل، 385/9.

[2]- ابن الأثير، الكامل، 385/9، وانظر ابن العديم، زبدة الحلب، 508/2-509.

وكان الهكاري رسول صلاح الدين إلى نور الدين سنة 569هـ/1173م؛ إذ أرسله مع بعض الهدايا إليه، يبيّن له أموال الدولة التي غنمها من الفاطميين، ووجوه إنفاقها على الجند والرعية والدولة[1].

وكان الهكاري رسول صلاح الدين إلى بكتُمَر[2] صاحب خلاط' شرق تركيا سنة 581هـ/1185م، الذي تولى حكمها في تلك السنة عقب وفاة سيده وحاكمها شاه أرمن، وكان بكتمر على علاقة وطيدة بالملك الناصر صلاح الدين، فلمّا وليها، حكمها بالعدل، وأحسن إلى رعيتها، فطمع من حوله بها، ومنهم بهلوان بن ألدكز شمس الدين أبو جعفر[3]، فقرّر بكتمر عندئذ الاستعانة بصلاح الدين وتسليم خلاط له، فتطلع صلاح الدين إليها، وأرسل إلى حاكمها الفقيه عيسى الهكاري وغيره، ليتفقوا معه على تسليمها، وطريقة ذلك، وحاول جاهداً إتمام الأمر، إلا أن البهلوان حين علم، مال إلى الصلح مع بكتمر حاكم خلاط، وزوّجه ابنته" وولاه، وأعاد البلاد إليه، واعتذر إلى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة"[4].

وهكذا يتضح أنّ االهكاري كان له دور سياسي في عهد صلاح الدين، وكان محل ثقته، وبخاصة في المهام التي تحتاج إلى إقناع وتأثير في النفوس، والتخفيف

---

[1]- انظر أبا شامة، الروضتين، 280/2 .

[2]- مملوك شاه أرمن أبن سلمان ، صاحب خلاط، حكم خلاط عقب سيده، فضبط الأمور، وأحسن إلى الرعية، وكان عادلاً، ذا سيرة حسنة، صاحب العلماء، توفي سنة 589هـ/1193م. انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 15/22.

[3]- كان حاكماً على العراق وأذربيجان والري وأصفهان، ووصف بالظلم والفتك، توفق سنة 582هـ/1186م. انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 316/21.

[4]- ابن شداد، النوادر السلطانية، 44، 45، وانظر أبا شامة، الروضتين، 232/3.

من التوترات ، والمهام التي تستدعي استمالة رجال الحكم لصلاح الدين وسياسته، وقد نجح في بعضها، وأخفق في أخرى، ولكنّ صلاح الدين كان أحياناً يؤنبه إذا أخفق في رأيه، وهذا ما حدث سنة581هـ/1185م، حين توجه صلاح الدين إلى الموصل للاستيلاء عليها، فأرسل إليه حاكمها عز الدين[1]، والدته صحبة بعض أعيان الدولة، وبعض النساء، ومنهن ابنة عمّه نور الدين زنكي، لطلب المصالحة، معتقداً أن صلاح الدين سيتأثر بحديث النساء، وبخاصة ابنة سيده نور الدين، فجمع صلاح الدين مستشاريه، ومنهم الفقيه الهكاري، فطلب رأيهم، فقالوا له: "مثل الموصل لا يترك لامرأة، فإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد، ووافق ذلك هواه، فأعادهن خائبات"[2] ، إلا أن الأمر كما يذكر ابن الأثير لم يكن عن ضعف من حاكم الموصل، وتجلى ذلك في المقاومة الشرسة التي أبداها جيش الموصل، ما اضطر صلاح الدين إلى التراجع، فانعكس الأمر سلباً على صلاح الدين الذي" فاته حسن الذكر ، وملك البلد، وعاد على الذين أشاروا بردّهن بالتوبيخ"[3].

ولم يكن الهكاري رسول صلاح الدين في المهام السياسية فقط، بل كان يرسله في بعض الأوقات إلى العلماء، لإقناعهم في البقاء في حضرته، وفي خدمة دولته، وهذا ما ذكره القاضي بهاء الدين بن شداد، الذي كان عزم سنة 584هـ/1188م على

---

[1]- مسعود بن ممدود ابن زنكي بن آق سنقر، كانت سيرته حسنة، فوصف بالعدل والكرم والعقل، حكم الموصل 13 سنة .توفي سنة 589هـ/1193م. انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 16/22-17.

[2]- ابن الأثير، الكامل، 6/10 .

[3]- المصدر نفسه، 6/10.

العودة إلى بلده الموصل، وكان صلاح الدين في الجهاد، فأرسل إليه، على حدّ روايته، الفقيه عيسى، وكشف له أن صلاح الدين" ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي، وكان الله قد أوقع قلبي في محبته منذ رأيته وحبّه الجهاد، فأحببته لذلك، وخدمته من تاريخ مستهل جمادي الأول من سنة أربع وثمانين، وهو يوم دخوله الساحل"[1].

ثانيا: الهكاري عسكريّاً ومجاهداً

لقد ثبت من البحث أن الفقيه عيسى الهكاري استمر في العمل العسكري في عهد صلاد الدين الأيوبي، وارتفعت منزلته شيئاً فشيئاً في الإمارة حتى أضحى في منزلة كبيرة في الدولة الصلاحية، بل عدّه بعض المؤرخين أكبر الأمراء، فمن الطبيعي بعدئذ أن يكلّف في مهام عسكرية خطيرة، وأن يشارك في الأعمال العسكرية وقيادة الجيش، وقد تبيّن آنفاً أنه كان في مهمة عسكرية سياسية لإقناع صاحب خلاط بتسليم البلد لصلاح الدين.

وأرسله الملك الناصر سنة 585هـ/1189م إلى الأمير تقي الدين عمر[2] يطلب دعماً عسكرياً، إبان حصاره الشقيف[3]. وفي السياق ذاته يُروى أن الفقيه عيسى أرسل في مهمة عسكرية لإجلاء الأمير ذاته، تقي الدين عمر، عن حكم مصر، وإرجاعه

---

[1]- ابن شداد، النوادر السلطانية، 56، وانظر أبا شامة، الروضتين، 10/4 .

[2]- عمر بن شاهنشاه أيوب الملك المظفر تقي الدين، ابن أخي صلاح الدين، عرف بشجاعته وكرمه ، وكان شاعراً مقرباً العلماء والأدباء . توفي سنة 587هـ/1191م. انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 22/392-395.

[3]- انظر أبا شامة، الروضتين، 69/4 .

إلى الشام سنة 582هـ/1186م، وذلك لما استشعر منه صلاح الدين الرغبة في الاستبداد بالحكم حين مرض في تلك السنة، وقد أدى الهكاري المهمة على الوجه الأكمل؛ إذ أسرع في الخروج إلى مصر، فلم يشعر به تقي الدين إلا وقد دخل عليه " داره بالقاهرة، وأرسل إليه يأمره بالخروج منها، فطلب أن يمهل إلى أن يتجهز، فلم يفعل، وقال: تقيم خارج المدينة وتتجهز، فخرج وأظهر أنّه يريد الدخول إلى الغرب، فقال له: اذهب حيث شئت، فلمّا سمع صلاح الدين الخبر، أرسل إليه يطلبه، فسار إلى الشام، فأحسن إليه"[1].

ويظهر هذا النص حنكة الهكاري العسكرية، وحسن تخطيطه؛ إذ فاجأ الأمير تقي الدين، وأخرجه خارج القاهرة خشية غدره، ولم يمهله، ويتبيّن منه المكانة العظيمة التي كانت له في الجيش حيثما حلّ، ومنه جيش مصر، الذي أعانه في مهمته ولم يثر عليه، ويساند تقي الدين، ويكشف من جهة أخرى عن ثقة صلاح الدين به؛ إذ أمّنه على مصر.

وتكثر المصادر التاريخية من الحديث عن الدور الذي أداه الفقيه عيسى الهكاري في الجهاد ضد الأعداء ولا سيّما الصليبيين؛ إذ حضر فتح مصر، وكان شاهداً على إزالة الدولة الفاطمية، وشارك في حروب أخرى، منها فتح بيت المقدس سنة 583هـ/1187م ، ومعركة عكا سنة 585هـ/1189م[2].

[1]- ابن الأثير، الكامل، 16/10.

[2]- انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 375/21، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/6.

ويتبيّن من البحث والتنقيب أن الهكاري تعددّت مهامه في هذه الحروب والغزوات، فقد تولّى في بعضها قيادة بعض فرق الجيش، فرووا أنه كان " مقدّم القلب" في معركة عكا سنة 585هـ/1189م[1]، وشارك غيره من الفقهاء والخطباء والعلماء في هذه الغزوة في تحريض الجيش على الجهاد، وحثهم على الثبات حين كادت الدائرة تدور عليهم فيها[2]، وثبت الهكاري مع صلاح الدين في هذه الأيام العصيبة، التي فرّ فيها أغلب الجيش، فظل من الفئة القليلة التي ساندت السلطان، وروى حكايات عن السلطان عنه إبانها، وقد تفرّد الدواداري في إيراد أقواله، ومنها قوله متحدثاً عن دور الملك الناصر في حث رجاله على الثبات: " فيذكر عن الفقيه الهكاري.. قال: إن السطان صلاح الدين شاهدته بعينيّ وهو يدور بنفسه على جيوش المسلمين، ويحرضهم على القتال، يقول لهم: إني كأحدكم، فلا يطلب اليوم أحد منكم غير رضى ربّه"[3]. ويتحدث الهكاري عن ثبات صلاح الدين في هذه المعركة؛ إذ حلف" بالله أنّه لم يبق مع السلطان سوى خمسة أنفار"[4]، ويستمر الهكاري في وصف ذلك اليوم كما شاهده، وجهاد صلاح الدين فيه؛ إذ ثبت بالفئة القليلة حتى استطاع لم شتات جيشه، وتحقيق النصر، يذكر الدواداري:" قال الفقيه الهكاري: إنّ السلطان لما ردّ على الفرنج

[1]- انظر ابن شداد، النوادر السلطانية، 75، وانظر أبا شامة، الروضتين، 87/4.
[2]- انظر الدواداري، كنز الدرر، 101/7.
[3]- المصدر نفسه،100/7.
[4]- المصدر نفسه، 101/7.

لم يكن معه من الناس ما يلحق الألفي فارس، وكان الفرنج في أربعمائة ألف أو يزيدون"[1].

هذه الروايات التي سردها الهكاري تدل على أن الرجل ظلّ محافظاً على المسؤولية التي أنيطت به، وهي قيادة فرقة في الجيش، ولم يترك قائده الأعلى وسيده وحيداً يواجه الموت، بل ثبت معه حتى تغيرت المعادلة، فأضحت الهزيمة نصراً مؤزراً.

ويتحدث المؤرخون عن دور الهكاري في الجهاد، وشدة قتاله الأعداء، ومنها معركة عكا ، فيسرد ابن شداد ما رآه منه آنذاك إذ" وقع عن فرسه وأُركبه، فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه"[2] .وتحدثوا عن جهاده وبأسه في معركة الرملة سنة 570هـ/1174م التي وقعت بين المسلمين والصليبيين، فذكر أنه في هذه المعركة دارت الهزيمة على الجيش الصلاحي، ولكن الهكاري" كان أكثر الناس قتالاً ذلك اليوم"[3]، وظل مجاهداً مع أخيه الظهير حتى حلّت الهزيمة، فانهزموا، وضلّوا الطريق، " فأخذوا ومعهما جماعة من أصحابهما، وبقوا سنين في الأسر ، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار، وجماعة كثيرة من الأسرى"[4]، وكان ذلك سنة

---

[1]- الدواداري، كنز الدرر، 102/7.

[2]- ابن شداد، النوادر السلطانية، 77 .

[3]- ابن الأثير، الكامل، 428/9. وانظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 248/21، وانظر أبا شامة، الروضتين، 90/4.

[4]- ابن الأثير، الكامل، 429/9، وانظر ابن شداد، النوادر السلطانية، 34، ابن الجوزي، مرآة الزمان، 262/2، أبا شامة، الروضتين، 264/2، الذهبي، تاريخ الإسلام، 806/12، الدواداري، كنز الدرر، 63/7، الصفدي،، الوافي بالوفيات، 170/23، السبكي، طبقات الشافعية، 256/7.

576هـ/1180م[1]، ويذكر أبو شامة أن الهكاري أطلق من أسره في صفقة تبادل للأسرى بين صلاح الدين والفرنج؛ إذ فدى فيها صاحب الرملة ابن بارزان نفسه، وقد كان أسيرا لدى صلاح الدين، بمئة" وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين"، ومنهم الهكاري[2].

وكان للهكاري دور في معركة حطين وفتح بيت المقدس سنة 583هـ/1187م وعقبها، وواضح أن الرجل كان مشاركاً في الجهاد يومذاك، ولكن المؤرخين ركّزوا على أدوار أخرى أنيطت به، فبعد دخول القدس، وطرد الصليبيين منها، تولّى الهكارى الوساطة بين صلاح الدين والنصارى العرب، من سكان المدينة الأصليين، فأمنوا على حياتهم ومنازلهم لقاء جزية يدفعونها للدولة الصلاحية[3]. وكانت الصخرة الشريفة قد غيّر الصليبيون معالمها؛ إذ بنوا عليها كنيسة، وأخذوا منها قطعاً، وبنوا على جدرانها أشباه خنازير" وعيّنوا بها مواضع الرهبان، ومحط الإنجيل"، ووضعوا عليها صليباً كبيراً مكان الهلال، ولما شاهد صلاح الدين ما حلّ بها " أمّر الفقيه ضياء الدين الهكاري أميناً عليها، ثم أدار عليها صفائح الحديد"[4] ، فصانها "وثبّت أركانها بكل تسديد"[5]، ولذا أطلق عليه بعض المؤرخين لقب "أمين القدس"[6]. وقد أكرمه السلطان

---

[1]- انظر أبا شامة، الروضتين، 28/3.

[2]- أبو شامة، الروضتين، 28/3.

[3]- انظر أبا شامة، الروضتين، 402/3.

[4]- الدواداري، كنز الدرر، 89/7 ، وانظر أبا شامة، الروضتين، 398/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 229/2.

[5]- أبو شامة، الروضتين، 398/3.

[6]- تفرد بهذا اللقب الدواداري في كنز الدرر، 100/7.

الناصر صلاح الدين على أفعاله تلك بأن أعطاه جميع ما كان لفرقة الداوية في القدس من إقطاع وضياع[1].

علاقة الهكاري برجال الدولة الآخرين

كان الفقيه عيسى على علاقة وطيدة بعدد من رجال الدولة الآخرين، وربما اعتمدوا عليه في إنجاز بعض مهامهم، لثقتهم به، ومنهم العماد الأصفهاني، الذي روى أن نور الدين زنكي طلب إليه إعمار المحراب في المدرسة العمادية[2] في دمشق، وكان خارجها، فأسند المهمة إلى الفقيه عيسى الهكاري مهمة إعماره نيابة عنه[3].

وكان الفقيه عيسى رسولاً لبعض معارفه من رجال الدولة إلى صلاح الدين، فقد ربطته علاقة بالفقيه مجد الدين عيسى بن جهبل الشافعي المتوفى سنة 596هـ/1199م، الذي وجد مكتوباً في تفسير القرآن لابن أبي الحكم المغربي، عند قوله تعالى: "ألم غلبت الروم"[4] أن الروم " يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح بيت المقدس، ويصير داراً للإسلام"، وحين فتح الملك الناصر حلب في تلك السنة كتب إليه ابن جهبل رسالة تبشره بفتح بيت المقدس، " وأعطى

---

[1]- انظر ابن الأثير، الكامل، 375/21، أبا شامة، الروضتين، 310/3.

[2]- وتسمّى المدرسة النورية الصغرى، ، بناها نور الدين زنكي لخطيب دمشق الخضر الحارثي، الذي درّس فيها، ودرّس فيها العماد الأصفهاني، بنيت في دمشق داخل بابي الفرج والفراديس لما دخلها نور الدين سنة 549هـ/1154م، وقيل: بناها عماد الدين بن نور الدين زنكي، وعفيت آثارها ولا وجود لها اليوم . انظر عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، 133، أكرم العلبي، خطط دمشق: دراسة تاريخية شاملة، 148-149

[3]- انظر أبا شامة، الروضتين، 279/2.

[4]- سورة الروم، أية 1 .

الورقة للفقيه عيسى، فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان"، فأوكل الأمر إلى القاضي محيي الدين بن الزكي، الذي أوصل الأمر بطريقته إلى صلاح الدين[1].

وربطت الفقيه عيسى الهكاري علاقة بالفقيه ابن أبي عصرون المتوفى سنة 585هـ/1189م[2]، وكان يعده شيخاً من شيوخه، وأعانه على تولي منصب القضاء سنة 573هـ/1177م[3].

[1]- أبو شامة، الروضتين، 170/3-171.

[2]- شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون، شيخ مذهب الشافعية، من أهل الفتيا، سافر لخدمة السلطان من حلب . انظر أبا شامة، الروضتين 428/2.

[3]- انظر ابن الجوزي، مرآة الزمان، 246/2، أبا شامة، الروضتين، 428/2.

خاتمـة

بعد الانتهاء من الكتابة عن الفقيه عيسى الهكاري ودوره في عهدي أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي يمكن تسجيل بعض النتائج :

- تناولت كثير من المصادر التاريخية العربية الفقيه عيسى الهكاري، وبخاصة حياته في عهدي القائدين شيركوه وصلاح الدين، وتحدثت عن نسبه، وألقابه المتنوعة، ووفاته، وعلمه، وبعض شيوخه، وعمله، وصفاته، وبعض أخوته، ولكنها لم تقف على تاريخ مولده، ونشأته.
- أشارت بعض المصادر إلى نسبه إلى علي بن أبي طالب، وذكرت ألقابه المشيرة إلى موطنه وعلمه وعمله وهي: الهكاريّ، والموصلي، والشافعي، وضياء الدين، وأجمعت على وفاته سنة 585هـ/1189م خلا الدواداري الذي جعل حياته تمتد حتى سنة 587هـ/1191م، ولم يحدد بدقة تاريخ وفاته.
- برز من المصادر أن الهكاري درس الفقه والحديث في أماكن متفرقة في جزيرة ابن عمر ودمشق والإسكندرية، وذكرت بعض شيوخه، الذين كانوا من رجالات هذه العلوم المعروفين في وقتهم.
- تبيّن أن الهكاري شغل في حياته أعمالاً مختلفة مثل التدريس في المدرسة الزجاجية، والإمامة في الصلوات، وعمل جندياً وأميراً للجند، وأضحى أمينا للقدس عقب تحريرها سنة 583هـ/1187م.

- أوضحت المصادر أن الهكاري كان شجاعاً ذا مروءة وشهامة، وكريما تقيّاً، حريصاً على مصالح الإسلام والمسلمين، وجمع في لباسة بين لبس الفقهاء والعسكر.
- أوضحت المصادر صلة الهكاري بالأمير أسد الدين شيركوه، وأن علاقته به كانت حين كان شيركوه قائداً للجيش النوري في دمشق، وكان إمامه في الصلوات الخمس، ثم ذهب معه إلى مصر، ورقّاه فجعله أميراً من الأمراء، ووثق به وقرّبه، وأسند إليه مهمات سياسية وعسكرية.
- أسهبت المصادر في الحديث عن علاقة الهكاري بالملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، فتحدثت عن متانتها، وعن الحب المتبادل من الطرفين، فقد حفظ صلاح الدين له مكانته التي كانت في عهد أسد الدين شيركوه، ورعاه ورقّاه لمّا عمل على تثبيته في الوزارة وعلى إقصاء الأمراء المخالفين له، الطامعين في الحكم والوزارة، فأضحى الهكاري من أكابر القوم والأمراء في الدولة الصلاحية، فعمل في ظل الملك الناصر جندياً وأميراً، وقرّبه الأخير، وحظي بثقته في المهمات الخطيرة السياسية والعسكرية، فكان رسوله فيها، وشاركه في جهاد الصليبيين، وبخاصة في غزوات الرملة وعكا وفتح بيت المقدس، وكان قائدا عسكرياً في بعضها، وروى أخباراً عن بطولات صلاح الدين وثباته في الحروب، وحرصه على الجهاد في سبيل الله. وتبيّن من المصادر أن الهكاري قاتل فيها بضراوة، فأصيب في بعضها، وأسر، وقضى سنوات عديدة في الأسر

حتى افتداه صلاح الدين، وكان دوره واضحا عقب فتح القدس سنة 583هـ/1187م، فكان واسطة بين النصارى العرب وصلاح الدين، وأسندت إليه أمانة القدس، وإصلاح الصخرة المشرفة، والإشراف على شؤونها، فمنحه صلاح الدين الغنائم التي غنمها المسلمون من فرقة الداوية الصليبية فيها .

- بيّنت الدراسة أن الهكاري كانت له علاقات متينة مع رجال آخرين من فضلاء عصره في الدولة الصلاحية، وكان بعضهم يثق به للقيام ببعض المهام ليؤديها نيابة عنه، وكان هو بدوره يقف إلى جانبهم ويزكيهم لبعض مناصب الدولة.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، ت630هـ/1232م، الكامل في التاريخ، حققه واعتنى به : عمر عبد السلام تدمري، 11 جزءاً، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- أحمد محمود الخليل، الفقيه عيسى الهكاري مهندس الدولة الأيوبية، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية
- أكرم حسن العلبي، خطط دمشق: دراسة تاريخية شاملة، ط1، دار الطباع للطباعة والنشر والتوزيع، 1410هـ/1989م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت 874هـ/1369م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16 جزءاً، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- حنا، عيسى، المقابر الإسلامية في القدس، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية.
- ابن خلّكان، أبو العباس شمس أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت681هـ/1282م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 8 أجزاء، حققه: إحسان عباس، دار صادر بيروت ، 1398هـ-1978م .
- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، مجهول تاريخ الوفاة، كنز الدرر وجامع الغرر، 9 أجزاء، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391هـ-1972م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت 748هـ/1347م؛، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 16 جزءاً، حققه وضبط نصه وعلّق عليه: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان؛ العبر في خبر من غبر، 6 أجزاء، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1380هـ/ 1960م .
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله ت 654هـ/1256م، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، 23 جزءاً، الجزء الحادي والعشرين والثاني والعشرين، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط1، الرسالة العالمية، 1434هـ-2013م.

- السبكي، تاج الدين أبو نصر بن عبد الوهاب بن علي بن علي بن عبد الكافي ت 771هـ/1369م، طبقات الشافعية الكبرى، 10 أجزاء، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.
- أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، ت665هـ/1267م؛ عيون الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، جزءان، تحقيق: أحمد البيومي، وزارة الثقافة، دمشق، 1992م/1413هـ؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين :النورية والصلاحية، 5 أجزاء، حققه وعلق عليه: إبراهيم الزيبق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1318هـ-1997م.
- ابن الصابوني، جمال الدين أبو حامد محمد بن علي المحمودي، تكملة إكمال الإكمال، تحقيق: مصطفى جواد، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1406هـ-1986م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، 764هـ/1363م، كتاب الوافي بالوفيات، 29 جزءاً، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1322هـ/2001م.
- عبد القادر بدران ت1346هـ/1927م، منادمة الطلال ومسامرة الخيال، الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية، إشراف: زهير شاويش، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا، 1405هـ/1985م.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت 660هـ/1261م، زبدة الحلب من تاريخ حلب، جزءان، حققه وقدّم له: سهيل زكّار، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا، 1318هـ-1997م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ت 732هـ/1331م، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، جزءان، علّق عليه ووضع حواشيه: محمد ديّوب، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1317هـ/1997م.

- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء ابن عمر القرشي الدمشقي ت 774هـ/1372م، البداية والنهاية، 13 جزءاً، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1419هـ/1998م.
- محمد عمر حمادة، موسوعة أعلام فلسطين في القرن العشرين، سوريا،1421هـ- 2000م .
- محمد كرد علي، خطط الشام، 6 أجزاء، ط2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي ت845هـ/1141م، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك،4 أجزاء، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة، ط2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر.
- المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي، ت656هـ/1258م، التكملة لوفيات النقلة، 4 أجزاء، حققه: بشار عواد معروف، ط1، مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1984م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب،33 جزءاً، تحقيق: نجيب مصطفى فواز ، و حكمت كشلي فوّاز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2004م-1424م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم ت697هـ/1297م، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، 5 أجزاء نضره لأول مرة عن مخطوطات كمبردج وباريس وإستانبول وضبطه وحققه وعلق حواشيه وقدم له. ووضع فهارسه: جمال الدين الشيال .
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي، 626هـ/ 1229م، معجم البلدان، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397هـ/1977م.